أسلوب القرآن الكريم بين الشعر والنثر

جمال خالد محمد غنام

المقدمة

الحمد لله على نعمة القرآن العظيم، المنزل بلسان عربي مبين، فشهد له القاصي والداني بالبلاغة، فوقفوا دونه مبهورين، وعجزوا عن أن يأتوا بمثله ؛ لما فيه من بناء متين، فسما بهذه السميّة عن عبث العابثين، وثبت له الحفظ إلى يوم الدين.

أمّا بقاء القرآن الكريم على هذا الوجه المتميز من الصون والحفظ، فقد كان حسنة عظيمة زادت العربية حسنا على حسنها، وضمن لها الحفظ وأسباب الدوام والانتشار، وتلك، لعمري، ميزة اختصت بها العربية عن سائر اللغات ؛ فالقران الكريم بخلوده حقق للعربية الخلود. لهذا لم يكن غريبا أن تتعدد آراء الباحثين ببلاغة القرآن الكريم، ومظاهر إعجازه ومجازه، ورغم اختلافاتهم الكثيرة إلا أنهم يكادون يجمعون على نظمه المعجز، وبلاغته الفائقة، وأسلوبه المتميز الذي أعجز الأولين والآخرين من بني آدم.

إن نزول القرآن الكريم على النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – بنسق معجز، بما فيه من فصاحة البيان، وبلاغة التعبير، ليدل دلالة قوية على أنّه كان يخاطب أناسا وصلوا إلى درجة عالية من فصاحة التعبير ؛ فهم يفهمون لغته، ويدركون مقاصده، بما ملكهم الله – تعالى – من رقي عقلي، متمثل بلغتهم وأدبهم شعرا ونثرا، فكان التحدي الإلهي بأميز ما يتميزون به، وهو لغتهم.

عندما سمع العرب القرآن، ظنوه لأول وهلة شعرا، ولكنهم عندما اختبروه وجدوه مختلفا عن ذلك، وكذلك نفى رب العزة عنه أن يكون شيئا من ذلك، فظنوه سحرا أو سجع كهان، ثم أدركوا اختلافه عن ذلك كله، فما كأن منهم إلا أن اعترفوا بتميزه عن كلامهم، وعجزهم عن مجاراته ؛ لأنه مختلف عما ألفوه في حياتهم الأدبية ولغتهم الفنية. فالقرآن الكريم جاء، إذن، بلغة العرب، ولكن، ما محل أسلوبه من أساليبها؟ وهل هو نمط لغوي يطابق أنماطهم اللغوية ؟ ! وبما أنه ثابت بالنقل والعقل أنه ليس شعرا، فهل لنا أن نعتبره نصا نثريا ؟ أم أنه ليس هذا ولا ذاك ؟ هذا ما ستحاول هذه الدراسة الإجابة عنه. هذا السؤال وجدت له إجابات كثيرة في دراسات كثيرة، ولكن هذه الإجابات بعضها كان مشتتا، وأخرى منها كانت مجتزأة، فمعظم علماء البلاغة العربية تحدث عن بلاغة القران، ومظاهر تميزه وإعجازه، كما هو عند الجرجاني و الباقلاني والرماني وغيرهم، ألا أنني لم أجد، فيما قرأت، إجابة شافية تجيب عن سؤال البحث نفسه، اللهم إلا دراسة باحث اسمه (فتحي عبد القادر فريد) والتي عنوانها ب (فنون البلاغة بين القرآن الكريم وكلام العرب)، لا أقول: إنها تجيب عن نفس السؤال، إلا أنها أقرب دراسة، عثرت عليها، بحثت هذه القضية.

وقد اتبعت في دراستي هذه الدراسة منهج البحث الاستقرائي ؛ حيث تتبعت، ما استطعت، آراء من أشار إلى مشكلة البحث تصريحا أو تلميحا، ابتداء بما عثرت عليه عند بعض القدماء، لا سيما الباقلاني والرماني، ثم عرجت على ما قاله بعض روّاد النهضة الحديثة وباحثين معاصرين كمصطفى صادق الرافعي وفتحي أحمد عامر وفتحي عبد القادر فريد، انتهاء بآراء بعض علماء الشريعة والأدب في جامعة النجاح الوطنية في فلسطين.

تأسيس:

قال تعالى:"قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ". (١)

القرآن الكريم كلام الله – تعالى– ومعجزته الخالدة، بما فيه من روعة الأسلوب، وحسن التنظيم، وبما اشتمله من علوم وأحكام وهداية، وبما احتواه من أمور غيبية ماضية أو مستقبلية.

احتار العلماء في الكشف عن وجوه إعجازه، حتى قال بعضهم:"إن الله تعالى قد صرف قدرة القادرين على المعارضة بخلق العجز في أنفسهم وألسنتهم، فالقرآن الكريم في البيان والهداية كالروح في الجسد ". (٢)

ولذا تحدّى العلماء والبلغاء أن يأتوا بسورة من مثل القرآن الكريم، يناسب

أسلوبها أسلوبه، وبيانها بيانه، وبلاغتها بلاغته.

لقد أرسل الله - تعالى – أنبياءه بالمعجزات، وكانت معجزة النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – هي القرآن العظيم، وكان ذلك في زمن علا فيه شأن البيان وعرف أصحابه بالفصاحة وقوة المعارضة، لكنهم عجزوا عنه رغم تحديهم وتقريعهم بأن يأتوا بمثله.

فاستطاع النبي-صلى الله عليه وسلم- بما أيده الله – تعالى – من معجزة القرآن الكريم، أن يثبت أن كتاب الله – عز وجل – قد أحدث انقلاباً في حياة العرب ؛بما تركه من تأثير في نفوس سامعيه، وبه سادت أمّة أميّة، بعدما تشربت معانيه، وأدركت مغازيه، وعملت بما فيه، ولكنها لما جهلت أسرار لغته، وحسن سمته، وسبل هدايته، تغير مقامها، وقل شأنها، ففتحت بذلك المجال واسعاً لجهل الجاهلين أن يطعنوا في القرآن العظيم، ولكن أنى لهم، وقد تكفل الله – تعالى – بحفظه ؟ قال تعالى: "إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون". (٣)

ولذلك ظهر الكثير من الحريصين على كتاب الله – عز وجل – فألّفوا المؤلفات العظام، شأنهم في ذلك، بيان إعجاز القرآن الكريم، وإظهار مواضع تميزه، فكان الجاحظ، وعبد القاهر الجرجاني، والباقلاني، والرماني، والرافعي، وغيرهم الكثير، ممن لا يتسع المقام لعدّهم.

ورأى بعضهم أن الكلام في وجوه الاعجاز واجب شرعي، يجب أن ينهض به القادرون عليه في كل زمان ومكان، ذلك أن كل زمان له ظروفه الخاصة به، وله قضاياه التي تطرح فيه، فالأسئلة المتعددة تحتاج إلى أجوبة شافية، والله المستعان.

فقد قرأت فيما قرأت، من كلام السابقين، حديثهم عن القرآن الكريم وإعجازه، وأنه تفرّد بأساليب لم تكن لغيره، وحاولوا إبراز تميزه عما ألفته العرب من شعر أو خطابة أو سجع كاهن.

ولكن أحداً منهم لم ينف مباشرة، أن يكون القرآن الكريم من منثور الكلام، ولكن ذلك قد يلمح في كلامهم، كأن هذا السؤال لم يطرح عليهم، أو أنه لم يخطر ببالهم، وهذا ما ستحاول هذه الدراسة استجلاءه، من خلال تتبع آراء القائلين في هذا الموضوع سواء الأقدمون منهم، أم المحدثون.

(الفصل الأول)
رأي الباقلاني

ولد الباقلاني في البصرة، وعاش في بغداد، تتلمذ على يد الكثير من العلماء، وكان من أتباع المذهب الأشعري، وقد تعشّقه واندفع في نصرته، بما عرف عنه من قوة الحجة، وبراعة المحاورة، وسرعة البديهة، وطلاقة اللسان. (٤)

أما رأيه في القرآن الكريم، فقد نفى السجع عن القرآن الكريم، لأنه يرى أن ما في القرآن الكريم مختلف عن سجع العرب، وضرب أمثلة كثيرة لذلك، فما يشبه السجع قد يقع في الكلام العادي من كلام النثر، وقد يكون في الشعر أيضاً، وعلى الرغم من ذلك لم يسمّ العرب ما وقع من ذلك في كلامهم سجعاً، فالسجع لابد له من التصنع، وليس في القرآن مثل هذا، وسمى ما في نهايات أية الذكر الحكيم فواصل، يقول "وفواصل القرآن مما هو مختص بها، ولا شركة بينه وبين سائر الكلام فيها، ولا تناسب" وهو بذلك ينزهه عن أي شبيه. (٥)

أمّا أن العرب لم تسمّ ما يقع في كلامهم اليومي من تشابه الفواصل سجعا فهو كلام فيه نظر، فإن لم يسمّوه سجعا، فماذا يسمّونه إذن ؟!

بل إن القرآن الكريم على تصرف وجوهه، وتباين مذاهبه، خارج عن المعهود من جميع نظام كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد، وذلك أن الطرق التي يتقيد بها الكلام والبديع المنظوم تنقسم إلى أعاريض الشعر، على اختلاف أنواعه، ثم إلى أنواع الموزون غير المقفى، ثم إلى أصناف الكلام المعدّل المسجّع، ثم إلى معدّل موزون غير مسجع، ثم إلى ما يرسل إرسالاً، فتطلب فيه الإفادة. وهو يرى أن القرآن الكريم خارج عن هذه الوجوه، ومباين لهذه الطرق، فهو ليس من باب السجع، ولا فيه شيء منه، وكذلك ليس من قبيل الشعر، لأن من الناس من ادعى أنه كلام مسجع، ومنهم من أدعى فيه شعراً كثيرا. (٦)

إن عدم اقتدار العرب على معارضة القرآن الكريم مدعاة إلى تفريق كلام الله – عز وجل – عن كلام البشر، يقول: "ألا ترى أنهم قد ينافر شعراؤهم بعضهم بعضاً، ولهم في ذلك مواقف معروفة. وكانوا يتنافسون على الفصاحة والذلاقة، ويتبجحون بذلك، فلن يجوز –والحال هذه- أن يتغافلوا عن معارضته لو كانوا قادرين". (٧)

فنظم القرآن الكريم وقع من البلاغة موقعاً، يخرج به عن كلام الإنس، كما يخرج به عن كلام الجن، ولا يثبت إعجازه إلا بأن يتحداهم بأن يأتوا بمثله، فإن ظهر عجزهم عن ذلك كان كلام الله – سبحانه وتعالى – معجزاً ومنزهاً عن أي شبيه شعراً كان أم نثراً.

لقد تحدث الباقلاني عن طرق كلام العرب، وبيّن سمت كل طريقة، وما يجب فيها، وهدفه من ذلك أن يبين عظيم محل القرآن الكريم، وليعرف ارتفاعه عن مواقع هذه الوجوه، وتجاوزه الحد الذي يصح أو يجوز أن يوازن بينه وبينها. (٨)

فدلالة التحدي عنده دلالة إعجاز، ودلالة الإعجاز تعني اختلاف كلام الله – تعالى – عن كلام البشر شعراً كان أم نثراً، يقول: "والذي يدل على أنهم كانوا عاجزين عن الإتيان بمثل القرآن الكريم، أنه تحداهم إليه حتى طال التحدي، وجعله دلالة على صدق نبوته، وضمن أحكامه استباحة أموالهم ودمائهم وسبي ذريتهم، فلو كانوا قادرين على تكذيبه لفعلوا وتوصلوا إلى تخليص أنفسهم". (٩)

رأي الرماني

هو علي بن عيسى بن عبد الله الرماني، ولد في بغداد، على الأغلب، وقيل في سامراء، وكانت وفاته في بغداد، أحد علماء المعتزلة، كان إماماً في علم العربية، وله تصانيف في: النحو، واللغة والنجوم والفقه والكلام، في رأي ياقوت الحموي لم ير مثله قط في علم النحو، وغزارة الكلام...". (١٠)

تحدث الرماني عن إعجاز القرآن الكريم، وقال إن إعجازه من سبع جهات هي: ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة، والتحدي للكافة، والصرفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية، ونقض العادة وقياسه بكل معجز. (١١) وهذه الجوانب يمكن إجمالها بما يأتي:

أولا: ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة ؛ أي أن دوافع التحدي والمعارضة عند قريش والعرب عامة قد توافرت لشدة حاجتهم لدحض رسالة القرآن الكريم وتكذيبه، إلا أنّ عجزهم عن مجاراته حالت دون قيامهم بمعارضته.

ثانيا: تحدي الكافة، فلم يقف تحدي القرآن الكريم العرب خاصة في زمن النبوة، بل امتد ليشمل الإنس والجنّ كافة، وفي ذلك دلالة إعجاز وتعجيز.

ثالثا: الصرفة: قوله بالصرفة نابع من نظرته الاعتزالية، وأول من تحدث عن مفهوم الصرفة النّظام أستاذ المعتزلة الأول، ويقصد بالصرفة على مذهبهم: صرف همم البشر عن معارضة القرآن الكريم، بغض النظر عن بلاغته، فمظاهر البلاغة المتوافرة فيه يمكن أن تكون في كلام العرب البلغاء، إلا أن الله - تعالى - صرف هممهم عن الإتيان بمثله، وهذا الرأي كان مثار جدل عند معظم علماء البلاغة العربية. (١٢)

رابعا: البلاغة، والبلاغة عنده: إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من صور اللفظ، وقد حصرها في عشر جوانب، هي: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان. (١٣)

خامسا: الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة، وذلك بما تضمنه من أخبار مستقبلة، تحققت في زمن النبوة، فثبت بها صدق نبّوته – صلى الله عليه وسلم – وعجز الآدميين عن الإخبار بأخبار يقينية الحدوث كخبره.

سادسا: نقض العادة، من أهم ما اعتمد عليه الرماني في إثبات إعجاز القرآن ما أسماه بـ (نقض العادة)، بأن جاء كلام الله – عز وجل – مخالفاً ضروب الكلام كله، وأنه جاء بطريقة مفردة وبأسلوب خاص. يقول الرماني: "إن القرآن الكريم جاء بأسلوب جديد... أما نقض العادة، فإن العادة كانت جارية بضروب من أنواع الكلام المعروفة، منها الشعر، ومنها السجع، ومنها الخطب، ومنها الرسائل، ومنها المنثور الذي يدور بين الناس في الحديث، فأتى القرآن الكريم بطريقة مفردة خارجة عن العادة لها منزلة في الحسن، تفوق كل طريقة. (١٤)

فالقران الكريم كان المعجزة الكبرى ؛ فقد قارع البشرية بطريقة نظمه التي فاقت كل طريقة عرفت قبل نزوله وبعد النزول هذا الإعجاز كان سبباً كافياً لأن يفرق الرماني بين كلام الآدميين وكلام رب العالمين، كأني به ينفي عن النصّ القرآني أن يكون نصّا نثريا، عدا عن نفيه عنه أن يكون نصّا شعريا.

سابعا: قياسه بكل معجز، فكل نبيّ من الأنبياء – عليهم السلام – جاء

بمعجزة، تثبت صدقه، وكل معجزة كانت مرتبطة بما اشتهر به أقوام هؤلاء الأنبياء، وكذلك كانت معجزة رسولنا محمد – صلى الله عليه وسلم –.

(الفصل الثاني)
رأي مصطفى صادق الرافعي

يعد الرافعي أحد رواد النهضة الفكرية في مصر، وهو ذو تفكير حر، عرف باعتداله الفكري، وأكثر من كتابة ما يمكن تسميته بالأدب التاريخي، وتميز بغيرته على كتاب الله تعالى، فكان كتابه "إعجاز القرآن".

ينطلق الرافعي في نظرته إلى القرآن الكريم من ضرورة فهم اللغة العربية وأساليبها، ومعرفة مستوياتها، فالقرآن الكريم أنزله رب العالمين بلسان عربي مبين.

فأسلوبه خاص لا يستطيع كشف معانيه إلا من له صلة وثيقة بالعربية وأساليبها، يقول "إن لكلام الله تعالى أسلوباً خاصاً يعرفه أهله ومن امتزج القرآن الكريم بلحمه ودمه، وَأَمّا الذين لا يعرفون منه إلا مفردات الألفاظ وصور الجمل، فأولئك عنه مبعدون، ففهم كلام الله – سبحانه وتعالى – يأتي بمعرفة ذوق اللغة، وذلك بممارسة الكلام البليغ منها". (١٥)

فالقرآن الكريم نور من الله – تعالى – جاء على هيئة كلام البشر، لكي يهديهم سبل ربهم، وهذا في ذاته معجزة ربانية، فهو معجز في تاريخه دون سائر الكتب، وهو معجز بما فيه من أثر إنساني (لغته)، وهو معجز في حقائقه الثابتة، يقول الرافعي: "وهو أن لهذا الكتاب الكريم أثر غيبي، كان في علم الله تعالى قبل كل الأزمنة البشرية فهو يحويها جميعاً، وكأنه يوجد معها كلها، وبذلك يتعين أنه هداية إلهية في أسلوب إنساني يحمل في نفسه دليل إعجازه". (١٦)

أما الحقيقة الأخرى التي اعتمد عليها الرافعي لتنزيه كلام الله – تعالى – عن كلام البشر، هي تحديه العرب خاصة، والبشر كافة أن يأتوا بمثل هذا القرآن الكريم.

والعرب خاصة، لأنهم في عهد نزول القرآن الكريم قد بلغوا الغاية من تهذيب اللغة، ومن كمال الفطرة والجمال البياني، حتى أوشكوا أن يصيروا في هذا المعنى قبيلاً واحداً باجتماعهم على بلاغة الكلمة، وفصاحة المنطق، وإنهم لأول دعوة من بلغائهم وفصحائهم مع تباعد ديار بعضهم عن بعض، وتعاديهم واختلافهم في غير هذا الحسّ باختلاف قبائلهم ومعايشهم، لأن الكلام يدفعهم إلى المنافرة والمفاخرة، فكانت الفصاحة هي سمتهم أجمعين.

فجاء القرآن الكريم أفصح الكلام وأبلغه لفظاً وأسلوباً ومعنى ليجد السبيل إلى امتلاك الوحدة العربية (الوحدة اللغوية) التي كانت معقودة بالألسن يومئذ، وهو متى امتلكها استطاع أن يصرفها ويحدث منها وحدة سياسية، فيستولي عليها (لغة العرب) بما امتلكه من قوة ساحرة جعلت العرب تشعر بالضعف، بل بالعجز والاضطراب أمام القرآن الكريم وأسلوبه المتميز.

فكان ذلك كفيلاً بأن يفحمهم من جهة الفصاحة التي هي أكبر أمرهم، ومن جهة الكلام الذي هو سيد علمهم وعملهم، فتصدعوا عنه، فكانت الكلمة منه تقع من أحدهم وإن لها ما يكون للخطبة الطويلة والقصيدة العجيبة. (١٧)

ويرى الرافعي أن كلام القرآن الكريم لا يشبه كلام البشر، ولا بحال، وهذا دليل إعجاز فيه على أنه ليس من كلام البشر، فكأني به يقول: إنّه ليس بشعر ولا نثر. وهذا نص كلامه في هذا المجال: "ذلك هو وجه تركيبه، أو أسلوبه المباين بنفسه لكل ما عرف من أساليب البلغاء في ترتيب خطابهم وتنزيل كلامهم، وليس من شيء في أسلوب القرآن الكريم يغض من موضعه، أو يذهب بطريقته أو يدخله في شبه من كلام الناس أو يرده إلى طبع معروف من طباع البلغاء، وما من عالم إلا ويعرف ذلك، ويعد خروج القرآن الكريم من أساليب الناس كافة دليلاً على إعجازه، وعلى أنه ليس من كلام البشر". (١٨)

فهو يعتبر من يعاند هذا الرأي مكابرا جاهلا لا يدرك حقيقة المعجزات، وهذا قاد بعضهم لأن يجعل كلام الله تعالى مشابهاً نمطه بعض أنماط كلام البشر، ويجرون عليه الحكم الذي يجري على غيره، كما يحلو لبعضهم، جهلاً فيهم، فهؤلاء ليس في نظرهم معان عقلية. (١٩)

ووجه كلاماً إلى مثل هؤلاء يقول فيه: "ولا ندري أمن علم أم جهل لا يصدقون أن في العالم معجزات، والمعجزة ماثلة بين أيديهم على مقادير متفاوتة ودرجات مختلفة في إعجاز القويّ للضعيف، ثم الأقوى للقوي، ثم الشاذ للأقوى، ثم ما كان إلهياً لما كان إنسانياً". (٢٠)

فكل ما كان إلهياً، ومنه القرآن

الكريم ليس يشتبه، ولو بحال، بما كان من البشر. فألفاظ القرآن الكريم مختلفة بطريقة استعمالها، ووجه تركيبها، كأنها فوق اللغة، فإن تمكن واحدنا من أفصح مفردات العربية وطرق تركيبها، فإنها لا يمكن أن تكون بين يديه مثل ألفاظ القرآن الكريم في كلامه، ولا تركيبها مشابه له في نظامه، وإن اتفقت له نفس الألفاظ بحروفها ومعانيها، لأنها في القرآن الكريم تظهر في أسلوب ممتنع تعرف به. (٢١)

فالقرآن الكريم انفرد بطريقة نظمه، وجاء أسلوبه فوق ما يطيقه الناس، فروح تركيبه، لم تعرف في كلام عربي قط وبها عرف، يقول الرافعي: "وإنك لتحار إذا تأملت تركيب القرآن الكريم، ونظم كلماته في الوجوه المختلفة التي يتصرف فيها، وتقعد بك العبارة إذا أنت حاولت أن تمضي في وصفه، حتى لا ترى في اللغة كلها أدل على غرضك، وأجمع لما في نفسك وأبين لهذه الحقيقة غير كلمة إعجاز ". (٢٢)

رأي فتحي أحمد عامر

لقد ركز فتحي أحمد عامر في حديثه عن إعجاز القرآن الكريم، وتميزه عن سائر الكلام على النواحي البلاغية في القرآن الكريم، ففي كتاب الله – تعالى – بلاغة استطاع أن يدركها أهل اللغة عندما تنزل القرآن العظيم فيهم، فأدركوا عجزهم عن معارضته، يقول فتحي عامر: "بل لما رأوا تلك المعاني مما تدركه ملكاتهم البيانية الأصلية، وتمسّه عواطفهم الشاعرة، لأنه جنس من كلامهم، ودونه أفحموا، ولأنه نظم لم يعهدوا طريقة تركيبه، ولم يخطر لهم على بال". (٢٣)

ومن ثم اتّهم من لم يستطيع أن يفرق بين نظم كلام الله – عز وجل – ونظم كلام البشر، بقصر النظر، لما بينهما من مباينة واضحة، وليست الممايزة بين كلام الله – عز وجل – وصنف من أصناف الكلام، بل واقعة بينها جميعاً وبينه، وقد أورد في هذا كلاماً للجاحظ هذا نصه: "ومن لم يفرق بين نظم القرآن الكريم وتأليفه، ونظم سائر الكلام وتأليفه، فليس يعرف فروق النظر، واختلاف البحث إلا من عرف القصيد من زجر الكاهن والمخمس من الأسجاع، والمزدوج من المنثور، والخطب والرسائل... فإذا عرف صنوف التأليف، عرف مباينة نظم القرآن الكريم وسائر الكلام". (٢٤)

ونظم القرآن الكريم على تصرف وجوهه، وتباين مناهجه خارج عن المعهود من نظام كلام العرب، ومباين للمألوف من نظام خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز في تصرفه عن الكلام المعتاد، وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن الكريم.

وليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع، إنما قد تنسب إلى حكيهم كلمات معدودة، فيها من الفصاحة والحكمة ما فيها، وإلى شاعرهم قصائد محصورة، متفاوتة في معانيها، أو بأشياء كثيرة مما فيها، وهذا عكس كلام الله – سبحانه وتعالى – المؤلف من كلام عجيب، نظامه لا يتفاوت ولا يتباين، عجزت الإنس والجن عن الإتيان بمثله، لأنه خرج بنظام كلامه عن عادة كلامهم جميعاً. (٢٥)

ولذلك لما سمعته العرب انبهرت به أيما انبهار، وظنته طرازاً وحيداً متفرداً، امتاز عن شعر شعرائهم، وسجع كهانهم، وخطب خطبائهم وقد عقب على قصة الوليد بن المغيرة، لما سمع القرآن الكريم، فذهب إلى بني قومه فأخبرهم عن رأيه فيه، أقول: عقب عليه بما قاله شوقي ضيف في كتابه الفن ومذاهبه، وهذا نصه: "فملاحظة الوليد بن المغيرة ملاحظة صادقة، وهي أن القرآن الكريم لا يماثل كلام الإنس ولا كلام الجن، الذي كان يجري على ألسنة كهانهم، بل هو طراز وحده، بل هو طراز يجعلنا نؤمن بأن القرآن الكريم ليس شعراً ولا نثراً من مألوف نثر العرب، بل هو أسلوب خاص، يقف وحده، وله بلاغته، بل إعجازه الذي انقطعت دونه آمال العرب في محاكاته، أو الاتيان بشيء من مثاله " (٢٦)، وهو بهذا يصدر عن رأي شوقي ضيف في أن القرآن الكريم ليس شعراً وليس نثراً. رغم ما يراه فتحي أحمد عامر من تميز القرآن الكريم في نظام تركيبه وبلاغته وفصاحته، إلا أنه لا يتعنت في نفي سمة السجع عنه، بل يرى أن السجع مما يتمايز به الكلام المنثور، وأن لا داعي لنفي هذا عنه وتسميته تسميات أخرى، كما فعل الباقلاني والرماني عندما أسميا خواتم الآيات فواصل، وهذا ما قاله في ذلك: "ولكن الباقلاني يتخبط تخبطاً شديداً عندما ينفي السجع تماماً عن القرآن الكريم، ويذهب إلى أنه لو كان سجعاً لكان غير خارج عن مألوف كلامهم، ولو كان واقعاً فيه لم يقع بذلك إعجاز، ولو جاز أن نقول سجع معجز، لجاز أن نقول شعر معجز ". (٢٧)

رأي فتحي عبد القادر فريد

لقد أورد صاحب هذا الرأي الآراء المختلفة في منزلة كلام القرآن الكريم

من منزلة كلام العرب، وقد ركز على رأي (زكي مبارك)، الذي استدل على رأيه بأن القرآن الكريم عربي، وقد أنزل على قومه يفهمونه، لهم أدب قوي قريب في روحه وأسلوبه من روح القرآن الكريم، وأن رسول الله – عليه الصلاة والسلام – كان بشراً ألهمه الله – سبحانه وتعالى – هداية قومه من خلال القرآن الكريم الذي كان أسلوبه مقارباً لأساليب كلام العرب، كما يرى زكي مبارك، بل إنه يرى أن القرآن الكريم نثر، بل هو نثر جاهلي.

ثم أورد ردود المخالفين لزكي مبارك، الذين كان أولهم المؤلف نفسه ومنهم (محمد لطفي جمعة) الذي أوضح أن لا مجال للموازنة بين أسلوب القرآن الكريم وأساليب العرب.

ومنهم (عبد المتعال الصعيدي) الذي نفى مشاكلة المعجزة لبراعة البشر، فليس هناك دخل لمعجزة عيسى – عليه السلام – بالطب، ولا لمعجزة موسى – عليه السلام – بالسحر، وكذلك معجزة القرآن الكريم لبلاغة العرب في شعرهم أو نثرهم. (٢٨)

ثم ذكر المؤلف بعض الوجوه التي تؤكد مباينة القرآن الكريم لأساليب العرب، وقد جعلها أربعة وهي:

١.مباينة القرآن الكريم لأساليب العرب في وجوه إعجازه:

حيث جاء القرآن الكريم بطريقة مفردة خارجة عن عادة كلام العرب، وقد خالفت أساليب العرب في مناهج نظمها ونثرها، وانختمت الآيات بفواصل، لا مثيل لها.

٢.تأليف القرآن الكريم من ألفاظ العرب جعله أكثر دلالة على الإعجاز:

وهذا ما فاجأ العرب، حيث جاء القرآن الكريم بألفاظ يألفونها، ولكن طريقة تركيبها بهرتهم، وجعلتهم عاجزين عن الإتيان بمثله.

٣.بلاغة الألفاظ في التركيب:

فالتركيب القرآني تميز بالسمو، وجاءت ألفاظه مطابقة لمقتضى الأحوال التي تقال فيها.

٤.صناعة البيان كصناعة البنيان:

يقصد بذلك أن القرآن الكريم استخدم مظهراً من مظاهر الحياة يعرفه جميع الناس، وهو مظهر البناء الذي يعد فنّاً من الفنون متنوع الأشكال متعدد الفئات والطبقات، فصناعة البيان كصناعة البنيان يحتاج كل منهما إلى مواد وإنسان، فالبناؤون والمهندسون يستخدمون نفس المواد، ولكن صناعاتهم تختلف، فكذلك صناعة اللغة في تعدد أساليبها وكثرة مفرداتها... وإن البلاغة في وضع كل منها موضعه الذي هو أولى به، ولا يصلح مكانه غيره، ثم بين أن البلاغة تتمثل في وضع كل لفظ من ألفاظ اللغة في موضعه المناسب، فانتهى من ذلك إلى أن اللغة قد استعملت أدقّ ما يكون في القرآن الكريم. (٢٩)

آراء بعض الدكاترة في جامعة النجاح الوطنية

لقد استقصيت آراء بعض الدكاترة في جامعة النجاح الوطنية حول رأيهم في القرآن الكريم، بما أن القرآن الكريم ثابت بأنه ليس شعراً، فهل لنا أن نعتبره نثراً ؟ وخصصت بالسؤال أهل الشريعة، وأهل الأدب العربي، لعلاقة كل منهما بالموضوع قيد الدراسة.

لقد كانت معظم الإجابات تسير باتجاه واحد، هو أن القرآن الكريم ليس شعراً وليس نثراً، ولا هو يشبه شيئاً من كلام البشر إنما هو نظم متفرد بشكله ومضمونه.

يقول الدكتور عودة عبد عودة عبد الله: "إن القرآن الكريم ليس شعراً ولا نثراً، وهو مختلف عما عرفه العرب من أساليب الكلام لأنه نوع فريد متميز في نظمه وأسلوبه، ويتميز في شكله ومضمونه ". (٣٠)

وقد ذهب مذهبه كل من الدكاترة: ناصر الدين الشاعر، وعبد الله وهدان، ومحسن الخالدي، وغسان بدران، يقول الدكتور غسان بدران: "تقسيم الكلام إلى نثر وشعر وسجع هو من البشر، وينطبق على كلام البشر، وعندما رفض الكفار الإيمان بالقرآن الكريم، صنفوه أنه من كلام البشر، قال تعالى على لسان كفّار قريش "إن هذا إلا قول البشر ". (٣١) وقالوا عنه إنه بشر... فالقرآن الكريم ليس شعراً ولا سجعاً كسجع الكهان، ولذلك رأيي ألّا يسمى نثراً، بل هو كلام الله – عز وجل – وحسب اسمه القرآن، وهذا وصفه ". (٣٢)

لقد أثار انتباهي الدكتور خضر سوندك، عندما سألته نفس السؤال، فأجاب بنفس ما أجابوا، ولكنه نظر إلى قضية الشكل في القرآن الكريم، حيث قال إن القرآن الكريم بشكله أقرب إلى

النثر منه إلى الشعر، أما أن ندرجه في إطار النثر فلا نستطيع ذلك، لأنه جاء منظوماً بأسلوب منفرد، يقول الدكتور خضر سوندك: "لقد اعتاد الناس أن يقسموا الكلام إلى شعر ونثر، والقرآن الكريم هو كلام الله تعالى المتعبد بتلاوته، فالنصوص جاءت لتنفي كون الرسول – صلى الله عليه وسلم – شاعراً، والقرآن الكريم ليس شعراً، إلا أنه جاء على صورة نظم ونثر في ناحية الشكل فقط، ولكن المضمون أنه كلام الله – سبحانه وتعالى – وحسب". (٣٣)

هذا الكلام كان مشابهاً لما قاله الدكتور عادل أبو عمشة أستاذ الأدب العربي في جامعة النجاح الوطنية، حيث قال: "الناظر في كلام الله تعالى من حيث شكله وموسيقاه يلاحظ أنه أقرب إلى النثر منه إلى الشعر، وذلك يعود إلى كون النثر أكثر قدرة على نقل الأفكار هذا من جانب، وأما الجانب الآخر فواضح من خلال موقف القرآن الكريم من الشعر والشعراء، حيث وصف قسماً منهم بالغاوين، لذا أرى أن القرآن الكريم لم يتخذ الشعر لغة له، وباختصار شديد فإن لغة القرآن الكريم لها سمت يختلف عن لغة الشعر، وحتى النثر الجاهلي (إن وجد)، لهذا أفضل أن يوصف النص القرآني بما سماه رب العالمين، وهو (القرآن) الذي لا يمكن أن يشبه الشعر أو النثر". (٣٤)

هذا الكلام استثارني لأن اسأل أهل الشريعة، هل نعتبر من يقول بأن القرآن الكريم نص نثري، آثماً ؟ فأجاب على هذا السؤال كل من الدكتور محسن الخالدي والدكتور عودة عبد عودة عبد الله، حيث بينا أن من قصد أن يقول بأن القرآن الكريم نص نثري مواز للنثر الفني، فإنه آثم بلا شك، وكلامه مردود عليه، أما من اعتبر القرآن الكريم نصاً نثرياً بقصد أن ينفي عنه الشعر، أو بقصد أنه نثر متميز ببلاغته، ولا يدانيه كلام البشر، فإننا لا نؤثمه، ولكننا لا نوافقه بالتسمية، فالأجدر أن نسمي القرآن الكريم بما سماه به رب العالمين وحسب، يقول الدكتور عودة عبد عودة عبد الله: "أما من قال بأنه نثر، فإن كان يقصد بأنه نثر متساو والنثر المعروف عند البشر، فهو آثم بلا شك، أما من قصد بأنه نثر متميز في بلاغته، ولا يدانيه كلام البشر فالخلاف معه في المصطلح ليس إلا". (٣٥)

الخاتمة

موجز البحث

بعد عرض الآراء الكثيرة والمتعددة حول القرآن الكريم، ومنازل اقترابه أو افتراقه من كلام البشر، وبالذات النثر الأدبي منه، فسأحاول في هذا الموجز إجمال هذه الآراء ومناقشتها، متناسياً أسماء أصحابها لسببين:

الأول: لأن كثيراً من الآراء تجدها مشتركة بين كثير من الباحثين.

الثاني: لأن أسماء أصحاب هذه الآراء مثبت في البحث سالفاً.

وبعد، لقد تعددت الآراء في القرآن الكريم، وكان معظمها يرى تميز القرآن الكريم عن النثر الفني، فبرزت في سبيل ذلك آراء متعددة، يمكن إجمالها بما يأتي:

- أولاً: اعتمد كثير من الباحثين على تحدي القرآن الكريم للبشر كافة أن يأتوا بمثله، ولقد ثبت عجزهم عن ذلك، ودلالة العجز في رأي هؤلاء، دلالة إعجاز، ودلالة الإعجاز تعني دلالة التميز والتفرد، وفي رأيي أن هذا لا ينفي أن يكون القرآن الكريم نصاً نثرياً، ذلك لأن العجز عن الإتيان بالمثل لا ينفي توحد الجنس. ودليل ذلك أن موسى – عليه السلام – لما تحدى فرعون ومن معه، تحداه بأنه سيأتيه بسحر يماثل السحر الذي جاء به، على الرغم من أن الذي جاء به موسى – عليه السلام – يعجز فرعون ومن معه، إلا أن موسى – عليه السلام – لم يتورع أن يسميه بتسمية البشر، وذلك لا يغضّ من قيمته. قال الله – تعالى – على لسان موسى – عليه السلام – متحدياً فرعون ومن معه: "فلنأتينك بسحر مثله" (٣٦). فدلالة الإعجاز والتحدي، وعدم الاقتدار على الإتيان بالمثل، لا تنفي أن يكون القرآن الكريم نصاً نثرياً.
- ثانياً: لقد اختلف كثير من الباحثين حول نهايات الآيات القرآنية الكريمة، وكان الرأي الأبرز من خلال الآراء المستقصاة في البحث نفي أن تكون هذه النهايات سجعاً، ذلك أن ما يشبه السجع في نهايات الآيات القرآنية الكريمة ليس مطرداً، ثم هو في نظامه مختلف عمّا ألفته العرب من سجع السجّاعين. والسجع فيه تكلّف، وليس في القرآن تكلّف. ثم إنه لو جاز أن نسميه سجعاً معجزاً، لجاز أن نسميه شعراً معجزاً، كما يرى الرماني والباقلاني. (٣٧)

ويبدو لي أن هذا الرأي فيه من الصواب ما فيه، غير أنّي أرى ألا نلهي أنفسنا بالانشغال بالتسميات عن المسمّيات.

- ثالثاً: اجتمعت الآراء الكثيرة على بلاغة القرآن الكريم، ولكن محاولة القول بالتفوق البلاغي للقرآن الكريم تنفي عنه أن يكون نصاً نثرياً فيه تشدد، فيما أرى ؛لأن التفوق البلاغي لا يفرق بين الأجناس اللغوية المتوحدة أو المختلفة. وليس معنى ذلك أني أوازن بلاغة القرآن الكريم ببلاغة النصوص الأخرى، بل على العكس من ذلك فإنني كلّي اعتقاد أن بلاغة القرآن الكريم لا توازيها بلاغة، ذلك أن مفرداته وتراكيبه انتظمت بأسلوب يدهش من يستطيع أن يتذوقه. بل إنني أرى أنه لا يجوز مقارنة القرآن الكريم بكل ما هو بشري.
- رابعاً: لقد أثبت كثير من الباحثين أن القرآن الكريم جاء بأسلوب مختلف عن أساليب كلام العرب، شعراً كان أم نثراً، فلا هو منظوم على أوزان الشعر، ولا هو منثور على طريقة النثر الفني، إنما هو منتظم بطريقة خاصة، ميزته عن سائر الكلام. وهذا مما يجعلني على يقين، أنه لا ينبغي لنا أن نسمي القرآن الكريم نثراً، بل إن هذا التسمية جائزة بحق القرآن العظيم.
- خامساً: إن من الدواعي التي تنفي أن يكون القرآن الكريم نصاً نثرياً أو غيره من تقسيمات البشر، أن القرآن الكريم ثابت بالوجه القطعي، عند المؤمنين به، أنه كلام الله – سبحانه وتعالى –، وما ينطبق على كلام البشر لا ينطبق على كلام رب البشر، فتقسيم الكلام العربي إلى شعر ونثر خاص بما هو بشري، وليس له علاقة بما هو إلهي.

وبراعة البشر لا تشاكل المعجزات الإلهية، مادية كانت أم معنوية، والقرآن الكريم هو أسمى معجزة إلهية.
- سادساً: إن من أكثر الأشياء التي جعلت بعضهم يظن أن القرآن الكريم نص نثري هو ورود نصوص قرآنية تنفي عنه أن يكون شعراً، فكان ذلك داعياً لهم أن يدرجه في ضمن النثر الفني، وهذا توجه لا أظنه في مكانه. بل الأدعى لمن يعترف بأن القرآن الكريم كلام الله – عز وجل –، ولا يخالطه ظن بأن هذا الكتاب العزيز معجزة الله – تعالى – الخالدة، وقد انفرد بتسمية إلهية هي (القرآن الكريم)، فلا يزعجنّ نفسه بتسميات أخرى، هي محل شك لدى كثير من الباحثين، ولا هي مأمونة بأن يحاسب عليها يوم يقوم الناس لرب العالمين.

الهوامش

١. سورة الإسراء، ٨٨.

٢. الرافعي، إعجاز القرآن الكريم، صفحة ٣٣-٣٤

٣. سورة الحجر، آية ٩.

٤. الباقلاني، إعجاز القرآن الكريم، صحفة ١٧-١٩.

٥. الباقلاني، إعجاز القرآن، صفحة ٦١.

٦. الباقلاني، إعجاز القرآن، صفحة ٣٥.

٧. الباقلاني، إعجاز القرآن، صفحة ٢٣.

٨. الباقلاني، إعجاز القرآن، صفحة ٧.

٩. الباقلاني، إعجاز القرآن، صفحة ٢٠.

١٠. ينظر، ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ص ١٤-٢٦، تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، مجلد ١٢ ص ١٦، الوفيات، ابن قنفذ، ص ٢١٩، الفهرست ابن النديم، ص ٦٩، .

١١. الرماني، النكت في إعجاز القرآن الكريم، ص ٢٥.

١٢. ينظر، بحث (حوار مع الرماني)، عبد السلام حمدان اللوح، مجلة الجامعة الإسلامية، سلسلة الدراسات الإسلامية، المجلد السادس عشر، العدد الثاني ص ١١١-١١٥.

١٣. الرماني، النكت في إعجاز القرآن الكريم، ص ٧٥، ينظر، بحث (حوار مع الرماني)، عبد السلام حمدان اللوح، مجلة الجامعة الإسلامية، سلسلة الدراسات الإسلامية، المجلد السادس عشر، العدد الثاني من ص ١٠٧-١٠٩.

١٤. الرماني، النكت في إعجاز القرآن الكريم، ص ١.

١٥. الرافعي، إعجاز القرآن الكريم، ص ٣٦.

١٦. الرافعي، إعجاز القرآن الكريم، ص ٢٧.

١٧. الرافعي، إعجاز القرآن الكريم، ص ٥٨-٥٩.

١٨. الرافعي، إعجاز القرآن الكريم، ص ٢٣٨-٢٣٩.

١٩. الرافعي، إعجاز القرآن الكريم، ص ٢٥.

٢٠. الرافعي، إعجاز القرآن الكريم، صفحة ٣٣-٣٤.

٢٠. الرافعي، إعجاز القرآن الكريم، ص ٢٥-٢٦.

٢١. الرافعي، إعجاز القرآن الكريم، ص ٢٦٦.

٢٢. الرافعي، إعجاز القرآن الكريم، ص ٢٥٩.

٢٣. فتحي أحمد عامر، بلاغة القرآن الكريم بين الفن والتاريخ، ص ١٣.

٢٤. فتحي أحمد عامر، بلاغة القرآن الكريم بين الفن والتاريخ، ص ٣٥-٤٣.

٢٥. فتحي أحمد عامر، بلاغة القرآن الكريم بين الفن والتاريخ، ص ٧٥.

٢٦. فتحي أحمد عامر، بلاغة القرآن الكريم بين الفن والتاريخ، ص ٦٣.

٢٧. فتحي أحمد عامر، بلاغة القرآن الكريم بين الفن والتاريخ، ص ١١٣-١١٤.

٢٨. ينظر، فتحي عبد القادر فريد، فنون البلاغة بين القرآن الكريم وكلام العرب، ص ١٢-١٤.

٢٩. ينظر، فتحي عبد القادر فريد، فنون البلاغة بين القرآن الكريم وكلام العرب، ص ١٤-٢٠.

٣٠. مقابلة شخصية بتاريخ ٢٠١٠/١٢/٥.، أذن بانشر

٣١. سورة المدثر، آية ٢٥.

٣٢. مقابلة شخصية بتاريخ ٥-١٢-٢٠١٠.، أذن بانشر

٣٣. مقابلة شخصية بتاريخ ٥-١٢-٢٠١٠.، أذن بانشر

٣٤. مقابلة شخصية بتاريخ ٥-١٢-٢٠١٠.، أذن بانشر

٣٥. مقابلة شخصية بتاريخ ٥-١٢-٢٠١٠، أذن بانشر

٣٦. سورة طه، آية ٥٨.، أذن بانشر

٣٧. ينظر، الرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم، ص٩٧

ثبت المصادر والمراجع

١.القرآن الكريم

٢.أحمد ابن علي أبو بكر الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٧ هـ

٣.ابن النديم أبو الفرج محمد ابن أبي يعقوب اسحاق، الفهرست، طبعة بيروت، ١٩٦٤

٤.الباقلاني، إعجاز القرآن الكريم، ط ٥، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٧.

٥.الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٩٩.

٦.الرماني، النكت في إعجاز القرآن الكريم، دار الفكر، عمّان، ١٩٨٤

٧. الرماني والخطّابي وعبد القاهر الجرجاني، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم، حقّقها وعلّق عليها:محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر.

٨.صلاح الدين خليل ابن أيبك، الوافي بالوفيات، دار الكتب الثقافية، فرانز شتاير بفينادن، ط ٢، ١٩٧٤

٩. عبد السلام حمدان اللوح، مجلة الجامعة الإسلامية، سلسلة الدراسات الإسلامية، المجلد السادس عشر، العدد الثاني

١٠.فتحي أحمد عامر، بلاغة القرآن الكريم بين الفن والتاريخ، منشأة المعارف، الاسكندرية ١٩٨٣

١١.فتحي عبد القادر فريد، فنون البلاغة بين القرآن الكريم وكلام العرب، ط ٢، مكتبة النهضة المصرية

١٢.ياقوت الحموي، معجم الأدباء، دار الكتب العلمية، المجلد الأول، بيروت

١٣. مقابلات شخصية أذن أصحابها بالنشر.